الدكتور محمد غنيمي هلال
دكتوراه الدولة في الأدب المقارن - جامعة السوربون
استاذ النقد - جامعة القاهرة

الأدب المقارن

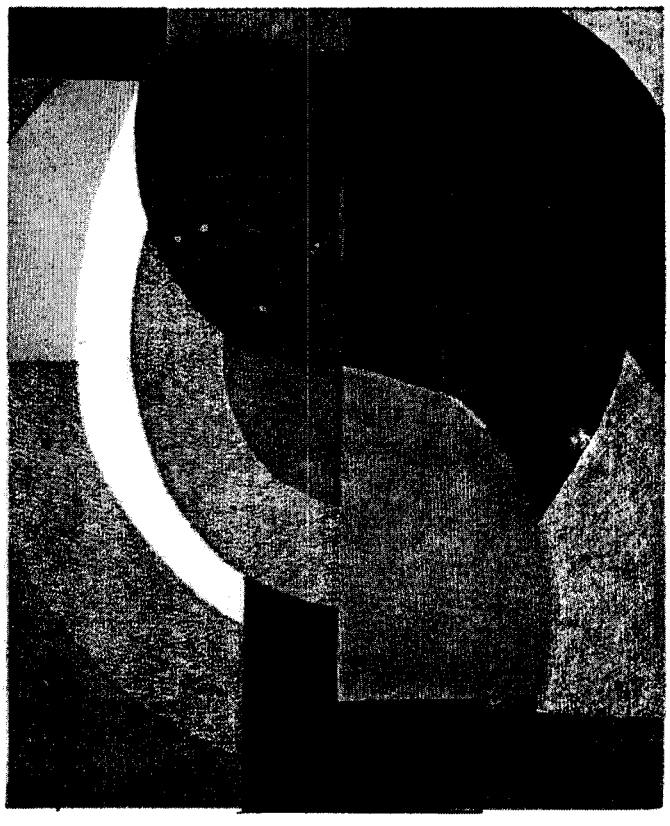

دار العودة - بيروت

الدكتور محمد غنيمي هلال

الأدب المقارن

دار العودة . بيروت

حقوق الطبع محفوظة
لدار العودة
١٩٩٩

يطلب من دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريفيرا سنتر
تلفون: ٨١٨٤٠٥ - ٨١٨٤٠٦
ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / بوقيا، العودة

تقديم الطبعة الثالثة

لا تزال مكانة الأدب المقارن فى جامعاتنا أقل كثيراً مما نأمل إذا نظرنا إلى ماينا ظرها فى جامعات الأمم الأخرى التى تعنى بهذا النوع من الدراسات الفنية الإنسانية معاً . فمنذ زمن طويل ، تعنى هذه الجامعات بعلم الأدب المقارن والدراسات المقارنة ، كما أوضحناه ودعونا إليه فى هذا الكتاب .

على أن ما لقيته الطبعة السابقة التى ظهرت فى العام الماضى من هذا الكتاب من قبول طيب من كثير من نقادنا ونقاد البلاد الشرقية ، ومن إقبال من القراء، يبشر بما نتوقعه لهذه الدراسات فى بلادنا من نمو وازدهار . وقد اقترن ذلك باهتمام كثير من الكليات الجامعية لدينا بإدخال هذا العلم فى مناهج الدراسة بها ، إيماناً بأنه جوهرى للدراسات الأدبية ، وتلبية منها لمطلب من مطالب الحياة العقلية والفنية معاً ، مما يدل دلالة قاطعة على أنا بدأنا نستجيب إلى نداء الوعى القومى العربى الحديث الذى لم يكن يوماً أقوى مما هو عليه الآن ؛ وقد أخذ يبحث فى شتى ميادين الحياة العلمية والفنية عما يدعمه . وأقوى وسيلة لدعمه أن يتصل بالتيارات الفكرية الفنية والعالمية اتصالا ينمى به أصالته ، ويواصل سيره فى مجالات التطوير والتجديد .

وقد عرف بند توكروتشيه الأدب المقارن بأنه « اسم جديد لنوع من الخميرة هى موضع التبجيل على مر العصور » . وفى الحق كثيراً ما أفاد الكتاب والنقاد من نتائج بحوث الأدب المقارن ومن مصطلحاته الفنية دون أن يكونوا من المتخصصين فيه . فالدراسات المقارنة من نوع الدراسات الإنسانية التى من شأنها أن تزدهر فى عصور النهضات ، ويقظة الوعى القومى والإنسانى . ولهذا ظهرت فى صورتها البدائية حين نهض الأدب اللاتينى على أثر اتصاله بالأدب اليونانى

فى القديم ، وتبلورت بذورها الأولى فى عصر النهضة الأوروبى، فتمثلت فى نظرية جديدة أطلق عليها كتاب عصر النهضة : نظرية المحاكاة ، على نحو ماشرحنا فى الكتاب ؛ واقترنت بالنزعة الإنسانية لذلك العصر ، ثم أصبحت فى العصر الحديث علماً أصيلا ذا فروع كثيرة فى جامعات العالم ، نتيجة حتمية لتأصل النزعة الإنسانية فى هذا العصر .

ولاشك أن لنهضتنا الحاضرة ، ووعينا القومى الجديد ، أثراً بالغاً فى أننا بدأنا نعنى بهذه الدراسات ، ونأخذها مأخذ الجد ، كما أخذ الجمهور يقبل عليها، ليتعرفها ويفيد منها .

وإلى جانب ما يزودنا الأدب المقارن به من تغذية شخصيتنا القومية ، وتنمية نواحى الأصالة فى استعداداتنا ، وتوجيهها توجيها رشيداً ، وقيادة حركات التجديد فيها على منهج سديد مثمر ، وإبراز مقومات قوميتنا فى الحاضر ، وتوضيح مدى امتداد جهودنا الفنية والفكرية فى التراث الأدبى العالمى — إلى جانب ذلك كله ، تظل للأدب المقارن رسالة إنسانية أخرى ، هى الكشف عن أصالة الروح القومية فى صلتها بالروح الإنسانية العامة فى ماضيها وحاضرها. فمن المسلم به أن أعمق مايشف عن روح الأمة هو أدبها ؛ كما أنه لا يكشف شىء عن وحدة الروح الإنسانية — فى جهدها الدائب فى سبيل التحرر والسلام وإقرار حرية الفرد والأمة — مايشف الأدب الإنسانى كله . ومعرفة كلا الأمرين حق المعرفة تتوقف على معرفة الآخر : فلا يستطاع تقويم الأدب القومى حق التقويم، ولا توجيهه خير توجيه ، إلا بالنظر إليه فى نسبته إلى التراث الأدبى الإنسانى جملة ، كى يتاح له أن يقوم بوظيفته الإنسانية من ثنايا قوالبه الفنية ، وأن يؤكد القيم الحضارية بتأديته لرسالته القومية والوطنية .

وقف شاعر الهند : رابندرانات تاجور ، عام ١٩٠٨م، فى جامعة جادافيور

فى كلكتا ، يتحدث عن الرســالة الإنسانية للأدب المقارن ، وتقتطف من حديثه هذه العبارات :

«دعيت لأتحدث فى موضـــوع ما تسمونه بالإنجليزية : الأدب المقارن Comparative Literature ... وما أحاول أن أقوله ينحصر فى أمر واحد : فكما أن الأرض ليست مجموع قطع من مساحات تمتلكها الشعوب المختلفة ، والاعتداد بالأرض على أنها كذلك لا يمكن أن يصدر إلا عن إدراك الزراع والفلاحين ، فكذلك الأدب : ليس مجرد مجموع أعمال أدبية صاغتها أيدى الكتاب المختلفين . على أن كثيراً من بيننا يفكرون فى أمر الأدب على الطريقة التى سميتها طريقة الفلاحين فى أمر الأرض . ومن هذه الإقليمية الضيقة علينا أن نقوم بتحرير أنفسنا ؛ فعلينا أن نجاهد كى ننظر فى عمل كل مؤلف بوصفه كالا ، وننظر فى هذا الكل بوصفه جزءاً من خلق الإنسان العالمى ، وننظر إلى هذا الروح العالمى فى مظاهره من خلال الأدب العالمى . وهذا هو ما آن لنا الآن أن نفعل» .

وليس هذا سوى جانب من جوانب رسالة الأدب المقارن الخطيرة الشأن فيما يخص الوعى القومى والوطنى والفنى والإنسانى جملة ، مما حاولنا أن نوضحه وندعو إليه ونلح فى الدعوة ، فى هذا الكتاب .

وقد وضحنا ، فى مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، أننا زدنا فيها كثيراً عن الطبعة الأولى حتى ليمكن أن تعد الطبعة الثانية منه كتاباً جديداً . وقد زدنا فى هذه الطبعة كذلك ، ونقحنا فيها ؛ على أن هدفنا فى هذه الطبعات كلها لم يتغير ، ألا وهو الدعوة إلى العناية بالدراسات المقارنة والإسهام فيها ، وتشجيعها . حتى تؤتى أثرها المرجو الذى نحرص كل الحرص على توكيده وإقراره والاستزادة منه لدى من يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

الروضة — فبراير عام ١٩٦٢ — محمد غنيمى هلال

مقدمة الطبعة الثانية

يتضح لكل من له إلمام بتواريخ الآداب الكبرى أنها فى حركة دائبة نحو اتجاهين : الخروج من حدود لغاتها للاتصال بالآداب الأخرى تؤثر فيها أو تستهديها ثمراتها ؛ ثم الرجوع إلى ذات نفسها ، تهضم ما استمدته، لتغنى به ، وتكمل ، وتتجدد فى أجناسها الأدبية ، وتنهض فى نواحى التصوير الفنية والإنسانية . وكلما كان الأدب قوياً فتيّاً كانت هذه الحركة أوضح وأقوى .

وعصر النهضة فى كل أدب يتسم بهذه السمة ، إذ يمتد فى الآداب الأخرى ، ويتصل بالتراث الأدبى العالمى يفيد منه ثمرات المباقرة من بينه ، ليكمل تراثه القديم بهذه الثمرات الخالدة . ولا ينطوى أدب على نفسه ، فى عصر من عصوره ، إلا أصابه الوهن والذبول . وهذه ظاهرة عامة تبعتها الآداب كلها فى تاريخها الطويل . فهى من طبائع الأشياء التى لا تقف فى سبيلها صيحات المعوقين . ولكل أدب عصور نهضاته التى تقدم فيها الركبَ الأدبى العالمى فى حركته الدائبة . فقد نهض الأدب اللاتينى باتصاله بالأدب اليونانى، وقاد الأدبُ الإيطالى والأسبانى الآدابَ الأوربية الأخرى فى عصر النهضة ، وساد الأدب الفرنسى فى العصر الكلاسيكى ، وكانت الصدارة للأدبين الإنجليزى والألمانى بين الآداب الأوربية فى أواخر القرن الثامن عشر . وفى العصور الحديثة ، تعاونت الآداب الكبرى كلها فى تبادل ظواهر التأثير والتأثر ، حتى لم يعد فى العالم كاتب أو ناقد ذو مكانة لا يعرف عن الآداب الأخرى فى ميدان تخصصه ما يستطيع به أن ينتج أدباً أو نقداً يعتد بهما .

ولأدبنا القومى العربى كذلك عصور نهضاته وصدارته . فقد أفاد من الأدب اليونانى والفارسى فى عهوده القديمة، واتصل بالآداب الأوربية فى العصور

الوسطى يغذيها بمواد موضوعاتها الأدبية فى ميدان الشعر وقصص الفروسة والحب ، ثم اتصل بها كذلك فى عصر النهضة، وفى العصر الرومانتيكى. وتصدّر مجالات تجديد كثيرة فى الآداب الإسلامية ، وخاصة الأدب الفارسى . وفى العصور الحديثة توثقت صلته بالآداب الأوربية وامتاح من موارد التجديد فيها ينشد الكمال فى نواحيه الفنية والإنسانية .

وهذه التيارات الأدبية العالمية هى مجال بحوث الأدب المقارن . ومحورها دائماً الأدب القومى فى صلته بالآداب العالمية وامتداده بالتأثير فيها وإغنائها أو بالتأثر بها والغنى بسببها . وللأدب المقارن — إلى جانب أهميته فى جلاء نواحى الأصالة فى الأدب القومى — أهمية أخرى لا تقل عن تلك خطراً ، وهى التعمق فى الكشف عن طبيعة التجديد واتجاهاته فى الأدب القومى والآداب العالمية . ثم إن الأدب المقارن — مع ذلك — أساس لا غنى عنه فى النقد الحديث . فقواعد النقد الحديث ثمرات لبحوثه العميقة . وفى هذه البحوث يتجه الأدب المقارن إلى البرهنة على تلك القواعد ، بتنبهه لطبيعة سير الآداب العالمية ، وكشفه عن الحقائق الأدبية الفنية والإنسانية ، وكيف تعاونت فيها الآداب جميعها؛ حتى ليسمى النقد الحديث : « النقد المقارن » ، إشارة إلى أهمية البحوث المقارنة فى جلاء جوانبه واستكمالها. وجامعات العالم الكبرى تعنى العناية كلها بالأدب المقارن وبحوثه ، وتفيد مما أثمر من أسس فذية ناضجة فى النقد الحديث . وتستلزم الدراسات المقارنة التعمق فى النظر إلى الأدب القومى ، لتقويمه حق التقويم ، والكشف عن خصائصه الأصيلة ، وتتبع نموها وغناها بفضل جهود الكتاب والنقاد ، وحسن إفادتهم من الآداب العالمية ، لتوجيه حركات التجديد فى أدبهم توجيهاً رشيداً على هدى ما تسير عليه الآداب العالمية .

وقد كانت هذه الحقائق كلها نصب عينى وأنا بسبيل إعادة طبع كتابى هذا : « الأدب المقارن » . فى الطبعة الأولى منه اقتصرت على التعريف بالأدب المقارن ومناهج بحوثه ، مع أمثلة عامة توضح ما شرحت ؛ ولكنى فى هذه الطبعة قصدت ، مع ذلك ، إلى التوسع فى شرح صلات أدبنا العربى بالآداب العالمية فى نواحيها المختلفة . واستقصيت ـ أو كدت ـ بيان هذه النواحى العامة . وطبيعى أنى لم أتعمق فى كل مسألة من مسائلها ، لأن التعمق فى دراسة كل مسألة منها لا يتسع له مجال كتاب واحد[1] .

وكانت غايتى أن أجلو جميع المنافذ التى أطل منها أدبنا العربى على الآداب العالمية الأخرى على مر العصور ، فى ناحيتى إفادته إياها والاستفادة منها ، مع بيان الاتجاهات العامة فى كل مسألة ، والإشارة إلى مراجعها التى تعين على التعمق فيها لمن يريد الاستزادة . وجلوت ذلك من خلال شرحى لطبيعة سير الآداب العالمية ، ومناهجها فى التجديد ، وطرائقها فى انشداد الكمال عن طريقى التأثير والتأثر ، أحاول بذلك أن أساعد على دعم الوعى الأدبى والنقدى ، وإرسائه على أسس سليمة ، حتى نعرف حق المعرفة موقفنا من الآداب العالمية ، وما يجب أن نسلكه تجاهها حين نرد من مواردها . فلا نقف دون الورد وقوف العاجزين المتخلفين ، ولا ننسى فيه أصالتنا القومية والوطنية ، فنكون كمن يريد أن يرتوى من نهر فيغرق فيه ، شأن الجاهلين من أدعياء التجديد ، لا دعاته الحنيفيين .

وهذا الكتاب ـ بعد ذلك ـ بمثابة دعوة إلى الاهتمام بالدراسات المقارنة فى معاهدنا وجامعاتنا . وهى دراسات تعنى جامعات العالم الكبرى بها كل

---

(١) ويكفى أن أضرب مثلا بالحياة العاطفية فى الأدبين : العربى والفارسى ، فقد تحدثت عنها فى هذا الكتاب فى بضع صفحات ، وتطلب استيفاء شرحها شرحاً مقارناً أن أؤلف فيها كتاباً آخر هو : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ .

العناية . بل إن بعض الدول تهتم بتلقين الطلاب فى مرحلة التعليم الثانوى الأسس العامة لعلم الأدب المقارن . فقد جاء فى ديباجة التعليم الثانوى بفرنسا ـ لعام ١٩٢٥ م — هذه العبارة التى ننقل ترجمتها هنا لأهميتها : « والذى يهمنا حقاً أن يعرف التلميذ . . . شيئاً من علم الآداب المقارنة ، وهو علم يختص التعليم العالى — فيما بعد — بإكمال الدراسة فيه ، ولكن لم يعد من الممكن أن يجهل عقل مثقف منهج هذا العلم وغايته » . ولهذا نعتقد أن جامعاتنا فى حاجة ماسة إلى التوسع فى علم الأدب المقارن لأهميته فى الدراسات الأدبية الحديثة ، ولضرورته للنقد الحديث ، ثم للوقوف على جوانب أصالة أدبنا ، وتوجيه حركة التجديد فيه وجهة رشـــيدة ، وبخاصة فى عصر نهضتنا الحاضرة التى فيها أخذ أدبنا يساير الآداب العالمية فى مختلف الأجناس الأدبية ، ونواحى التصوير الفنية ، والموضوعات الإنسانية .

١٩٦١ محمد غنيمى هلال

مقدمة الطبعة الأولى

موضوع هذا الكتاب: « الأدب المقارن » وهذا التعبير، كما نرى، مكون من كلمتين هما: الأدب والمقارن.

أما الأدب فكثيراً ما اختلف الباحثون فى تعريفه وطال جدالهم فيه. ولسنا بصدد مناقشة هذه التعريفات والمفاضلة بينها. ولكن مهما يكن بينهم من اختلاف فهم لا يمارون فى توافر عنصرين فى كل ما يصح أن نطلق عليه أدباً، هما: الفكرة وقالبها الفنى، أو المادة والصيغة التى تصاغ فيها. وهذان العنصران يتمثلان فى جميع صور الإنتاج الأدبى: سواء أكان تصويراً لإحساسات الشاعر وخلجات نفسه تجاه عظمة الكون وما فيه من جمال وأسرار، وحيال آلام الإنسانية وآمالها، أم كان تعبيراً عن أفكار الكاتب فى الإنسان والمجتمع. وسواء كان ذلك الإنتاج الأدبى رسالة أو مقالة، أم مسرحية أو قصة، يدعو فيها الكاتب أو الشاعر إلى فلسفته فى الحياة، أو يحلل شخصيات أبطاله، عن طريق الكشف عن الحقائق، وتصوير النماذج الإنسانية تصويراً يكفى فيه عرض حالات النفس فى مواقفها المختلفة للإيحاء بالأفكار، بل لترجمة هذه الأفكار إلى مشاعر وعواطف وأعمال، فلا يُتطلبُ من الأديب أن يفكر فيتعمق فى التفكير حتى يضل بقرائه فى متاهات الفلسفة ومعميات الأفكار المجردة، ولا أن يبحث فيستقصى نواحى البحث فى تحليله لكل حالات النفس ونواحى المجتمع. لا نكلفه ذلك، لأن رسالته يكفى فيها أن تصور الفكرة تصويراً فنياً يجذب إليها القراء، ويجلوها فى أذهانهم، ويسجلها فى وعيهم، إذ تتخذ من صياغتها الفنية طريقها إلى القلوب، ومن هنا يكتب لها الرواج والانتشار، ثم الدوام والخلود. فعنصر المادة والصياغة فى الأدب مقومان من

مقوماته . وهما له كالجسد والروح للإنسان ، سواء قدّمتَ أحدهما على الآخر أم اعتبرتهما كليهما على سواء[1] . ويعنى النقد بدراسة هاتين الناحيتين للأدب القومى ؛ فيدرس هذا الإنتاج فكرة وأسلوباً ، ويكشف عن العوامل النفسية فى حياة الكاتب وثقافته وصلة ذلك بإنتاجه ، كما يكشف عن العوامل الاجتماعية ، فيبين منزلة هذا الأدب فى المجتمع الذى نشأ فيه ، ومكانة الأديب بين سابقيه ولاحقيه من بنى قومه .

وأما كلمة « المقارن » فلا يُقصَدُ بها هنا المقارنة بمعناها اللغوى — وسنوفى القول فى هذ عندما نعرف الأدب المقارن فى هذا الكتاب — بل يجب أن يُلحظَ فيها المعنى التاريخىّ ، وبذا يكون الأدب المقارن هو دراسة الأدب القومى فى علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجة عن نطاق اللغة القومية التى كتب بها .

ولقد كان يظن فى بادىء الأمر أن من العسير بل من المستحيل تحقيق هذا النوع من الدراسة ، لأن الناحية الفنية تعتبر مقوماً من مقومات الأدب ، وهى ناحية خاصة بالعرض والصياغة ، وللغة فى ذلك دورها الذى لا ينكر . فاللغات ، إذن ، حدود حصينة تحول دون انتقال الأفكار فى صورها الفنية . وقد كان هذا الظن عقبة كأداء فى سبيل العناية بالدراسات الأدبية المقارنة ؛ ولكن سرعان ما تبدد حينما تبين الباحثون أن من الحقائق التى لا مجال لأدنى شك فيها أن الآداب فى مختلف الأمم تتبادل فيما بينها علاقات التأثير والتأثر بالرغم من اختلاف اللغات التى كتبت بها ، ذلك لأن الأفكار والتعبيرات كثيراً ما تتناظر وتتكافأ

---

(١) أصحاب الدعوة إلى الفن للفن لا يغفلون جانب الفكرة فى أدبهم ، بل إن منهم من يدعو إلى العناية بالناحية الفنية رغبة المزيد فى إيضاح الفكرة وشرحها . راجع مثلا :

Ph. Van Tieghem: Petite Histoire des Grandes Doctrines Littéraires, pp. 235-242.

R. Dumesnil: G. Flaubert, pp. 411, 427.

فى معظم اللغات ؛ وإلا لما تيسرت الترجمة[١]، ولما لقى كبار الكتاب حظاً وإعجاباً بهم فى مختلف اللغات، ولما نسجت الآداب الحديثة على منوال الآداب القديمة ، كما كانت عليه الحال مثلا فى أوربا فى عصر النهضة . هذا إلى أن الأدب المقارن لا يعنى بدراسة ما هو فردى فى الإنتاج الأدبى فحسب ، بل يعنى كذلك بدراسة الأفكار الأدبية ، وبالقوالب[٢] العامة التى هى من وسائل العرض الفنية ، والتيارات الفكرية ؛ وكل هذا مما يجد سبيله إلى القلوب فى مختلف اللغات[٣] .

وفوق هذا قد تجد الناحية الفنية سبيلها للخروج من نطاق الأدب القومى والتأثير فى الآداب الأخرى . فقد تتبادل الآداب التأثر فى النواحى الفنية كالصياغة فى الشعر والنثر . كما سيتاح لنا شرح ذلك أثناء دراستنا لموضوع الأدب المقارن فى هذا الكتاب[٤]

وكتابنا هذا يجوز لنا أن نسميه : « المدخل لدراسة الأدب المقارن » أو « الأدب المقارن ومناهج البحث فيه » . لأنى لم أقصد فيه إلى دراسة مسألة خاصة من مسائل الأدب المقارن ، بل أردت عرض موضوعه إجمالا . وجعلته قسمين : شرحت فى القسم الأول منه معنى الأدب المقارن ، وتاريخ نشأته . والوضع الحالى لدراسته فى أوربا ، مع دعوة لإقرار منهج منظم له بالجامعات

---

(١) حقاً إن الإنتاج الأدبى يفقد بعض روعته حين يترجم إلى لغة أخرى ، لأن له فى لغته الأصلية مزايا لا تتذوق إلا فيها . ولهذا أوجبنا على دارس الأدب المقارن أن يعرف اللغات التى يقارن بين آدابها . انظر هذا الكتاب حيث نتكلم عن عدة الباحث فى الأدب المقارن .

(٢) كالقصة والمسرحية مثلا فى قواعدها الفنية ، وهو ما سنطلق عليه كلمة الأجناس الأدبية .

(٣) انظر : R. de synthèse, 1920, pp. 23-24.

(٤) انظر هذا الكتاب فصل الأجناس الأدبية والصور الفنية والأسلوب .

للمصرية، ثم عرضت ميدان البحث فيه عرضاً سريعاً . وخصصت القسم الثانى لفروع الدراسات فى الأدب المقارن وطرق البحث فيها . وتوخيت أن أضرب أمثلة لمسائل البحث ، لمجرد شرح ما سقت من توجيهات عامة ، دون أن أقصد إلى استيعاب شرح هذه المسائل التى قد يستغرق بحث كل منها كتاباً أو كتباً. ولم أتردد فى ذكر أمثلة قد تكون جد معروفة لمن درسوا الآداب الغربية وتخصصوا فيها ، لأنها قد تكون مجهولة عند غيرهم . وقد عمدت فى شرحى للأفكار العامة إلى اختيار ما يوضحها من أمثلة خاصة بعلاقات الأدب العربى بالآداب الأخرى ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، عسى أن يكون فى ذلك حافز وتوجيه لمن يريدون المشاركة فى مثل هذه البحوث . لما لها من جدة وطرافة وأهمية بالغة .

فإذا وجد هذا الكتاب سبيله إلى ترغيب الباحثين فى هذا العلم من علوم الأدب ، وإلى الدعوة إليه ، وإلى شىء من التوجيه العام فى بحوثه ، كان ذلك حسبى على التوفيق من دليل ، والله على قصد السبيل .

١٩٥٣ محمد غنيمى هلال

الأدب المقارن

الأدب المقارن مفهوم حديث به صار علماً من علوم الأدب الحديثة وأخطرها شأناً وأعظمها جدوى .

وقد كثر الخطأ فى تحديد هذا المفهوم فى دراسته عندنا حتى اليوم ، وفى نشأته فى كثير من الأمم ، مما كان سبباً فى تعثر خُطا الدراسة فيه ، وتنفير كثير من الدارسين عنه ، وتضليل الناس فى جدواه . ولذا نرى من الضرورى أن نبدأ بتحديد معالمه وتوضيحها .

مدلول « الأدب المقارن » تاريخى . ذلك أنه يدرس مواطن التلاقى بين الآداب فى لغاتها المختلفة ، وصلاتها الكثيرة المعقدة ، فى حاضرها أو فى ماضيها ، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر ، أيّاً كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر : سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية ، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التى تعالج أو تحاكى فى الأدب ، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية فى العمل الأدبى ، أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس فى آداب الأمم الأخرى ، بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب ، ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر فى أدب الرحالة من الكتاب .

والحدود الفاصلة بين تلك الآداب هى اللغات ، فالكاتب أو الشاعر إذا كتب كلاهما بالعربية عددنا أدبه عربياً مهما كان جنسه البشرى الذى انحدر منه . فلغات الآداب هى ما يعتد به الأدب المقارن فى دراسة التأثير والتأثر المتبادلين بينها .

وبناء على تعريف الأدب المقارن السابق ، نلحظ أن تسميته بالأدب المقارن فيها إضمار ، إذ كان الأولى أن يُسمى : « التاريخ المقارن للآداب » أو « تاريخ الآداب المقارن » ؛ ولكنه اشتهر باسم الأدب المقارن . وهى تسمية ناقصة[١] فى مدلولها ، ولكن إيجازها سهل تناولها ، فغلبت على كل تسمية أخرى[٢] .

والأدب المقارن جوهرى لتاريخ الأدب والنقد فى معناهما الحديث ، لأنه يكشف عن مصادر التيارات الفنية والفكرية للأدب القومى . وكل أدب قومى يلتقى حتماً فى عصور نهضاته بالآداب العالمية ، ويتعاون معها فى توجيه الوعى الإنسانى أو القومى ، ويكملُ وينهض بهذا الالتقاء ؛ ولكن مناهج الأدب المقارن ومجالات بحثه مستقلة عن مناهج تاريخ الأدب والنقد ، لأنه يستلزم ثقافة خاصة ، بها يستطاع التعمق فى مواطن تلاقى العالمية . وإنما يستعين النقد وتاريخ الأدب بنتائج بحوثه التى تأتى ثمرة التعمق فى دراسة الصلات الأدبية العالمية فى ذاتها .

ولا تقف أهمية الادب المقارن عند حدود دراسة التيارات الفكرية والأجناس الأدبية ، والقضايا الإنسانية فى الفن ، بل إنه يكشف عن جوانب تأثر الكتاب فى الأدب القومى بالآداب العالمية . وما أغزر جوانب هذا التأثر ، وما أعمق

---

(١) ما أشبه هذا النقص فى التسمية بتسمية « المذهب الرمزى » فى الأدب ، وكان الأولى أن يسمى « المذهب الإيحائى » ، لأنه فى جوهره يبحث فى فن الإيحاء وفلسفته فى الشعر ، كما لحظ ذلك لويس كازاميان فى كتابه .

Symbolisme et Poésie; Paris, 1947. pp. 9-10.

وقد كان لتسمية المذهب الرمزى بهذا الاسم عندنا أخطاء جسيمة فى فهمه تشبه الخطأ فى فهم الأدب المقارن بسبب تسميته كذلك .

(٢) وقد أطلق كبار كتاب أوروبا هذه الاسماء المختلفة على الأدب المقارن طوال القرن التاسع عشر ، ولكن اسم الأدب المقارن كان أكثرها نجاحاً وبخاصة بعد أن جرى به قلم الناقد الفرنسى الكبير « سانت بوف » Sainte-Beuve عام ١٨٦٨ انظر :

R. de Littérature Comparée, 1921, pp. 7-9.

معناها لدى كبار الكتاب فى كل دولة . وهذا هو ما عبر عنه الناقد الفرنسى « ڤيلمان » Villemain فى محاضراته فى السربون عام ١٨٢٨ م بأنه: « السرقات الأدبية الأبدية التى تتبادلها كل الدول[١] » . على أن الأدب المقارن أرحب أفقاً وأعمق نظراً وأصدق نتائج فى دراسته للصلات الأدبية الدولية من الدراسات القديمة الضيقة الأفق والقليلة الجدوى لما كانوا يسمونه : السرقات الأدبية ، كما سيتضح ذلك من شرحنا للأدب المقارن ومناهجه فيما بعد .

وقد كان الباحث الفرنسى « جون جاك أمبير » J.J: Ampère من أوائل من نبهوا إلى الأهمية التاريخية لدراسة الأدب المقارن ، حين قال فى محاضراته فى السربون عام ١٨٣٢ م : « سنقوم — أيها السادة — بتلك الدراسات المقارنة التى بدونها لا يكمل تاريخ الأدب[٢] » .

وقصداً إلى توضيح معنى الأدب المقارن توضيحاً لا لبس فيه، نقفُ عند مفهومه ، لنخرج ما أقحمه فيه خطأ بعض من تصدوا لهذا النوع من الدراسة؛ ثم نحدد ذلك المفهوم فى أوسع معانيه ، فندخل فيه ما يتوهم أنه خارج عن نطاقه .

ويترتب على ماسبق أن ذكرنا من تعريف ، أنه لا يُعد من الأدب المقارن فى شىء ما يُعقد من موازنات بين كتّاب من آداب مختلفة لم تقم بينهم صلات تاريخية حتى يؤثر أحدهم فى الآخر نوعاً من التأثير ، أو يتأثر به . فمثلا ألف الكاتب الفرنسى الكبير « ستاندال » Stendhal (١٧٨٣ — ١٨٤٢) كتاباً عنوانه « راسين وشكسبير[٣] » ، لمقابلة الأصول التقليدية فى مسرحيات

---

(١) انظر R. de Synthèse Historique, 1920, p. 4.

(٢) R. de Littérature Comparée. p.8.

(٣) Racine et Shakespeare — وقد نشر الجزء الأول منه عام ١٨٢٣ ، والجزء الثانى عام ١٨٢٥ .

« راسين » بوجوه الإبداع فى مسرحيات « شكسبير » . ويتخذ هذه المقابلة وسيلة للإشادة بأصالة « شيكسبير » وبدراسته « القلب الإنسانى فيما له من قوانين إنسانية خاصة به ، وفيما يقوم أمامها من عقبات » . ويثور على القواعد الكلاسيكية التحكمية ، منتصراً بذلك للرومانتيكيين . ويتخذ « راسين » مثالا للشعراء عبيد القواعد على حين يضرب المثل للاتجاهات الفنية التى ينتصر لها من مسرحيات « شكسبير » ، والكتاب بذلك ذو قيمة فى فهم الدعوة الرومانتيكية التى اتخذ « شكسبير » و « راسين » تعلة للانتصار لها ، وذو قيمة كذلك فى فهم كاتبه نفسه وماله من ثقافة ؛ ولكنه ليس من الأدب المقارن لا فى منهجه ، ولا فى موضوعه ؛ إذ ليس بين « شكسبير » و « راسين » من صلة تاريخية . والأمر كذلك فيما يُعقد مثلا من موازنة بين الشاعر الإنجليزى : « ملتن » Milton (١٦٠٦ — ١٠٧٤ م) وبين أبى العلاء المعرى (٣٦٣هـ = ٩٧٣م - ٤٤٩هـ = ١٠٥٧ م) لأن كليهما كان أعمى ، وأنتج خاضعاً لهذه العاهة ، ثم على الأخص لأن لكل منهما آراء متطرفة فيما يخص الدين . وذلك أن كلا الشاعرين لم يعرف الآخر ولم يتأثر به ، فتشابه آرائهما وظروفهما أو مكانتهما الاجتماعية ليست له قيمة تاريخية .

ولا يصح أن ندخل فى حسابنا مجرد عرض نصوص أو حقائق تتصل بالأدب ونقده لمجرد تشابهها أو تقاربها دون أن يكون بينهما صلة ما تنتج عنها توالد أو تفاعل من أى نوع كان . قد يكون الجرى وراء مقارنات من هذا النوع مفيداً لتقوية الملاحظة وللإحاطة بمعلومات كثيرة ؛ ولكنه ليست له قيمة تاريخية حتى يعد فى باب الأدب المقارن . على أن مثل هذه المقارنات فى أغلب صورها عقيمة ، لأنها لا تشرح شيئاً ، بل تقوم على نوع من الترف العقلى ، أساسه جمع معلومات لا نظام فيها ولا قاعدة لها ، ولا يجمع بينها إلا مجرد ما يبدو من تشابه . وحرىٌ بالأدب المقارن أن يتناول مثل هذا النوع من الدراسات التى أساسها الصدفة والإدراك الرخيص للمشابهات ، ومجرى الإلمام بمعلومات والاطلاع على النصوص ، لأنفالا نقصد بدراسة

الأدب المقارن إلا الوصول إلى شرح الحقائق عن طريق تاريخى، وكيفية انتقالها من لغة إلى أخرى ، وصلة توالدها بعضها من بعض ، والصفات العامة التى احتفظت بها حين انتقلت إلى أدب آخر ، ثم الألوان الخاصة التى فقدتها أو كسبتها بهذا الانتقال . لمثل هذه الدراسات فليعمل العاملون ، ومنها ترجى الفوائد التى يتطلع إليها الباحثون . أما تلك الموازنات التى لا تشرح شيئاً، والتى تبقى غامضة لا يوضحها تاريخ ؛ فلا تتجاوز فى ضآلة قيمتها « مجهوداً ستاذى علم الأحياء ينفق وقته فى شرح التقارب شكلا ولوناً بين زهرة وحشرة »[1] .

وكما أخرجنا من حساب الأدب المقارن ما يعقد من مقارنات بين آداب ليست بينها صلة تاريخية ؛ كذلك نود أن ننبه إلى أنه ليس من الأدب المقارن فى شىء — طبقاً لما قدمنا — ما يساق من موازنات فى داخل الأدب القومى الواحد ؛ سواء أكانت هناك صلات تاريخية بين النصوص المقارنة أم لا .

فالموازنة بين أبى تمام والبحترى أو بين حافظ وشوقى فى الأدب العربى ؛ وكذا الموازنة بين « كورنى » Corneille و « راسين » أو بين « بسكال » Pascal و « مونتيى » Montaigen أو بين « راسين » و « فولتير » فى الأدب الفرنسى، يتخلى عنها مؤرخ الأدب المقارن إلى مؤرخ الأدب القومى ، لأن مثل هذه المقارنات — على أهميتها وقيمتها التاريخية أحياناً — لا تتعدى نطاق الأدب الواحد ، فى حين أن ميدان الأدب المقارن دولى يربط أدبين مختلفين أو أكثر.

ومهما أعرنا من أهمية للموازنات الداخلية لأدب واحد ، فإنها أقل خصباً وأضيق مجالاً وأهون فائدة من الدراسات المقارنة ، وذلك لأنها لا تشرح إلا نمو الاستعداد والمواهب للكاتب فى علاقاته مع سابقيه من أبناء أمته . وكثيراً ما تسير على وتيرة واحدة وفى حدود ضيقة ، كدراستنا للحريرى وتأثره ببديع

(١) R. de Litt. Comp., 1921, p. 7.

الزمان الهمذانى ، أو كدراستنا للشعراء اللاحقين وتقليدهم الشعراء الجاهليين فى الأدب العربى . أين هذا مما لو وضعنا نصب أعيننا أن ندرس نوع المقامات ونشأتها فى الأدب العربى وتطورها فيه ، ثم انتقالها للأدب الفارسى وحظها منه؛ أو ندرس موضوعاً كموضوع « مجنون ليلى » فى الأدب، وكيف تطور فى الأدب الفارسى وبعد عن ميدان الحب والغزل العذرى إلى ميدان التصوف والرمزية فى الأدب الثانى ؛ أو أن ندرس تأثير الأدب القديم اليونانى أو اللاتينى فى أدب كتاب عصر النهضة وشعرائهم ، بناء على نظريتهم فى محاكاة الأقدمين ، على نحو ماسنشرح أصوله بعد قليل ؛ أو ندرس تأثير شكسبير فى المذهب الرومانتيكى فى فرنسا ؟

مثل هذه الدراسات تُعد من صميم الأدب المقارن ، على حين تعد الموازنات الأولى من نطاق الأدب القومى البحت . ويدلنا مجرد سرد الأمثلة السابقة على فضل الدراسات المقارنة على الموازنات بصفة عامة .

بقى لنا أن ننبه إلى أن ميدان الأدب المقارن الذى شرحناه — وهو الصلات الدولية بين مختلف الآداب — أوسع مما يبدو لأول وهلة ، إذ هو لا يقتصر على دراسة الاستعارات الصريحة وانتقال الأفكار والموضوعات والنماذج الأدبية للأشخاص من أدب إلى آخر، بل يشمل أيضاً دراسة نوع التأثر الذى اصطبغ به الكاتب فى لغته التى يكتب بها بعد أن استفاد من أدب آخر . وهو ما نستطيع أن نطلق عليه تأويل الكاتب لما قرأه من آداب أخرى . وقد يبعد هذا التأويل كثيراً أو قليلا من الحقيقة .

فمثلا ، قد تأثر صوفية الفرس من المسلمين بالقرآن والدين ، ولكن بعد تأويلهما تأويلا كبيراً ، بحيث أدخلوا فى مفهومهما كثيراً من فلسفة « أفلاطون » و « أفلوطين » العاطفية ، وكثيراً من مبادىء التصوف فى الهند وإيران القديمة ،

ولكنهم فهموا آيات القرآن وأحاديث الرسول على هذه الطريقة ، أى بعد أن أخضعوهما لآرائهم وظنوا أنهم لها خاضعون . ومع ذلك نعدهم متأثرين بالقرآن والحديث عن طريق التأويل .

ونرى مثلا آخر لهذا التأويل فى الكاتب الإنجليزى «كارليل» Thomas Carlyle (١٧٩٥ - ١٨٨١)، حين أول ما قرأه عن الكاتب والشاعر الألمانى «جوته» Goethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢) ، فلم يلحظ ما فى إنتاجه الأدبى من جوانب السخرية والإلحاد ، والجحود والإنكار ، وجوانب الاستجابة إلى داعى الملذات . وإنما رأى فيه ما يتفق وتربيته الدينية الخلقية ، فرأى فيه حكيما يدعو إلى التدين والخضوع لما يفرضه الخلق القويم ، وداعية إلى العيش فى ظلال الدعة والواجب اليومى : فيقول عنه فى مقدمة رحلاته عام ١٨٢٧ : « وقد سموا «جوته» « فولتير » ألمانيا ، ولكنها تسمية خاطئة تصفه بما ليس فيه . وحتى لو ضربنا صفحاً عن مكانته وعن خلقه القويم - بوصفه إنساناً - فإنه فى تفكيره وكتابته ينتمى إلى طراز فى الرجال أعلى من ذلك الطفل المدلل فى عالم أفسده وفسد به [يقصد فولتير] . فليس « جوته » بالشاك ولا بالمجدف ، ولكنه للعلم الذى يحترم الحق . إنه ليس هداماً، بل بناء ؛ وليس رجل فكر فحسب، ولكنه حكيم[1] ». وكان لتأويل «كارليل» صدى قوى فى الرأى العام الإنجليزى، ولدى الكتاب والشعراء الإنجليز الذين اتخذوه رائداً خلقياً لهم فيما يكتبون؛ حتى ليقول الكاتب القصصى الإنجليزى «إدوارد بولور ليتون» فى مقدمة قصتين له[2] ذاتى طابع خلقى عام ١٨٤٠ . « فيما يخص الفكرة الأولى ، فكرة التربية الخلقية، أو التعليم العملى ، من اليسير أن يرى القارىء أننى مدين بها لقصة «ويلهلم

(١) انظر J. Marie-Carré : Goethe en Angletere. Paris, 1920, pp. 124-129.

(٢) انظر E. Bulwer-Lytton : Ernest Maltraverees Alice, preface.

ميستر « Wilhelm Meister » لجوته » ؛ وبتأثير هذا التأويل كان يرى الشاعر الإنجليزى الفنائى « تنسيون » Tennyson (١٨٠٦–١٨٩٢) فى جوته » مثال الحكيم الخلق ؛ ويقتبس فى بعض أشعاره من حكمه[1] . ونعد هذا فى الأدب المقارن من تأثير « جوته » بتأويل « كارليل » له . وإن كان هذا التأويل فى الحقيقة مجافياً للصواب .

ويتدرج فى الأدب المقارن نوع آخر من التأثر العكسى Influence à rebours كأن يقاوم الكاتب أثر كاتب آخر فى أدب أمة أخرى ، فينتج من هذه المقاومة أثرها فى تأليفه . ولنأخذ لذلك مثلا شاعرنا أحمد شوقى فى مسرحيته؛ كيلوباترا ، فقد تأثر فى فكرة دفاعه عن « كيلوباترا » — بوصفها مصرية — بالمسرحيات الكثيرة الأوربية فى الموضوع — وقد ظفر موضوع « كيلوباترا » فى الآداب الأوربية بما لم يكد يظفر به موضوع آخر فى عدد المسرحيات التى ألفت فيه — وفيها جميعاً اتخذت « كيلوباترا » مثال المرأة الشرقية أو المصرية فى نظرهم ، فهى مستهترة ولوعة بالملذات تتخذ إلى غايتها طرقاً ملتوية غير مستقيمة . وكان « أكتافيوس » مثال العقلية الغربية فى رأيهم أيضاً ، فى جده واستقامته وقوته؛ ثم كان « أنطونيوس » مثال العقلية الغربية قبل تعرفه بكيلوباترا ، وبعد تعرفه بها صار مثلها ؛ ففقد ما كان يتصف به من عزم وقوة بتأثير سحرها . وقد أراد شوقى أن يدافع عن هذه النظرة الخاطئة بتصوير « كيلوباترا » وطنية مخلصة ، تقدم وطنها حتى على حبها . ولسنا بصدد الرد على آراء من كتبوا عن « كيلوباترا » ناظرين لها فى الآداب الأوربية تلك النظرة ، كما أننا لسنا بصدد بيان مدى توفيق شوقى فى تصويره الفنى لكيلوباترا فى مسرحيته كذلك ، ولكنا — على أية

---

(١) انظر مرجع جون مارى كاريه السابق ص٢٠٦ — ٢١٥، ٢٥٢ — ٢٥٩ وكذا:
R. de Litt. Comparée, avril-septembre 194 , pp. 188-190.

حال — نعد شوقى متأثراً بأولئك الكتاب أو الشعراء تأثراً عكسياً[1] .

وعلى الأدب المقارن — إذا تصدى لهذا اللون من البحث — أن يشرح شرحاً تاريخياً لماذا تعرض الكاتب فى أمة إلى هذا النوع من التأثر دون ذاك، وما مبلغ شخصيته فيما تأثر به ، وما الألوان الخاصة والطابع القومى فى أدبه ، ولماذا اختلف عن الأدب الأجنبى الذى أثر فيه ؟

هذا ؛ ولن يضير كاتباً — مهما تكن عبقريته ،ومهما سما فنه — أن يتأثر بإنتاج الآخرين ويستخلصه لنفسه ، ليخرج منه إنتاجاً منطبعاً بطابعه ، متسما بمواهبه . فلكل فكرة ذات قيمة فى العالم للتمدين جذورها فى تاريخ الفكر الإنسانى الذى هو ميراث الناس عامة، وتراث ذوى المواهب منهم بصفة خاصة، ويقول « پول فاليرى » Paul Valéry فى كتابه :choses Vues « لا شىء

(١) ومثل آخر للتأثير العربى العكسى فى الفارسية فيما يخص جنس التاريخ الأدبى ، كما نراه فى تاريخ البيهقى الذى امتنع عن مدح نفسه متخذاً له طريقاً مضاداً لما فعل الصولى فى كتابه « الأوراق » . وإليكم ترجمة مايقوله أبو الفضل البيهقى عن الفارسية : « وكان أستاذى أبو الفضل الزوزنى رجلا عظيما ، ولن أتحدث عنه بكلام لا يليق ، إذ لاجدوى لشرح هذه الأحوال فى التاريخ . ولأنى إذا تحدثت عن هؤلاء الأصدقاء والكبراء مادحاً لهم فسيجرنى هذا إلى الحديث عن نفسى ، ولذا أربأ عن الخوض فيه ، حتى لا يقال إن أبا الفضل يحاكى الصولى فى مدحه لنفسه . لأن الصولى ألف فى أخبار العباسيين رضى الله عنهم ، وسمى كتابه : « الأوراق » . وقد أجهد فيه نفسه ليثبت أنه رجل فاضل ، وأنه وحيد عصره فى اللغة والأدب والنحو — وفى الحق أنه كان يندر وجود مثله فى عصره — ولكنه ثابر على إطراء نفسه ومدح شعره ، وأورد فيه كثيراً من قصائده . وقد ضج من ذلك الناس ، وأنزلوه لهذا منزلة دون منزلته . ومن ذلك أنه كان يعقب مادحاً نفسه على كل قصيدة من قصائده وإليك مثلا ما عقب على إحداها : « عندما قرأتها على الوزير الحسن على بن الفرات قلت : لو طلب الوزير من الشاعر البحترى قصيدة على هذا الروى والوزن لتراجع ولم يستطع ، فضحك الوزير وقال : « هذا صحيح » ، وقد ضحك كثيراً من ذلك معاصرو الصولى ، والآن سيضحك كذلك منه القراء . وحين وقفت على هذه الحال امتنعت — أنا أباالفضل البيهقى — أن أسلك طريق الصولى ، ولم أشأ أن أمدح نفسى » .

راجع الكتاب الفارسى : تاريخ بيهقى ، طبعة طهران ١٣٥٤ (١٩٤٥) ص ٦٠٢ .

أدعى إلى إبراز أصالة الكاتب وشخصيته من أن يتغذى بآراء الآخرين ؛ فما الليث إلا عدة خراف مهضومة ».

وعلى هذا لا يقتصر الأدب للقارن ـ فى ميدان بحثه الذى شرحناه ـ على عرض الحقائق ؛ بل يشرحها شرحاً تاريخياً مدعماً بالبراهين وبالنصوص من الآداب التى يدرسها . والأدب المقارن يتناول الصلات العامة بين الآداب ، ولكن لا غنى له من النفوذ إلى جوانب كل أدب ليتبين فيها ماهو قومى وماهو دخيل ، وليبين أهمية اللقاح الأجنبى فى إخصاب الأدب القومى وتكثير ثمراته.

فالأدب المقارن ، إذن ، يرسم سير الآداب فى علاقاتها بعضها ببعض ، ويشرح خطة ذلك السير ، ويساعد على إذكاء الحيوية بينها ، ويهدى إلى تفاهم الشعوب وتقاربها فى تراثها الفكرى. ثم هو — بعد كل هذا — يساعد على خروج الآداب القومية من عزلتها ، كى ينظر لها بوصفها أجزاء من بناء عام هو ذلك التراث الأدبى العالمى[1] مجتمعاً . وبهذا المعنى لا يكون الأدب المقارن مكملا لتاريخ

(١) وبهذا يقضى على الغرور الذى يدفع بكل شعب إلى الاعتداد بأدبه والوقوف عند حدوده واحتقار ما عداه ، وهذه نظرة ساذجة ولكنها ذات ضرر جسيم إذا سرت إلى المثقفين أو من يزعمون أنفسهم متخصصين ، وقد كان لها تأثير سيىء فى تعويق نهضتنا فى الأدب والنقد (انظر كتابى : المدخل إلى النقد الحديث مقدمة الطبعة الثانية ص ٢٢ — ٢٤) ومن أمثلة هذا فى القديم ما كان العرب يطلقونه فى معنى « العجم » من أنه خلاف العرب ، رجل أعجم وقوم عجم ، والأعجم من لا يفصح كالأعجمى ، كالعجم من الحيوانات . ونظير ذلك ما كان من الفرنسيين فى القرن السابع عشر (١٦٨٤) حين أتى وفد ملك سيام ، فأجاد التعبير عما يريد فى بلاط « لويس الرابع عشر » ، فدهش الفرنسيون كيف يستطيع غيرهم الإفصاح ، مما جعل الكاتب الخلق المعاصر : (لابرويير) ينعى عليهم ذلك ، ومما قاله : « ... إذا كانت فينا صفات وحشية ، فهى تلك التى تدفعنا إلى الدهشة من رؤية سوانا من الشعوب يعقل فى قوله وحججه مثلنا La Bruyére: Les Caractéres, XII, 22. — ونظير ذلك ما نراه فى كلام البحاثة اللغوى الفرنسى (بوهور Bouhours) (١٦٢٨ — ١٧٠٢) إذ يقول : « إن نطقنا — نحن الفرنسين — هو النطق الطبيعى ، فلغة الصينيين والأسيويين غناء ، وكلام الألمان صخب وضوضاء ، وحديث الأسبان موقع ، ومنطق الإيطاليين زفير ، ولغة =

الأدب ولا أساساً جديداً أقوم للدراسات النقد فحسب، بل هو — مع كل ذلك — عامل هام فى دراسة المجتمعات وتفهمها ، ودفعها إلى التعاون لخير الإنسانية جمعاء .

ولكن الأدب المقارن الذى يزيد تاريخه قليلا عن نصف قرن ، لم يفهم منذ نشأته على نحو ما شرحناه الآن ، بل فهم فهماً خاطئاً حيناً وناقصاً أحياناً .

وقبل أن يستقل بوجوده علماً ، كان يختلط فى كتابة الكتاب بغيره من علوم الأدب . لهذا وجب أن نتبع — إجمالا — نشأته فى أوربا ، ومراحل نموه فيها ، لنبين كيف استقر على ما هو عليه الآن علماً مستقلا ذا فروع كثيرة .

= الإنجليز صغير . والفرنسيون وحدهم هم الذين يتكلمون» :

Le P. Bouhours : Entretiens d'Ariste et d'Eugène, 1791; cf. Hallam : Introduction to the Literature of Europe, London. 1872. Vol.4, p. 402.

الفصل الثالث

عدة الباحث فى الأدب المقارن

إن الباحث فى الأدب المقارن يقف عند منطقة الحدود المشتركة للآداب المختلفة ، يتأمل حركتها فى تبادل صلاتها بعضها مع بعض ، ويكتشف التيارات العامة لتلك الصلات ، وآثار ذلك فى رجال الأدب ، وفى الكتب والموضوعات ، وفى الإحساس والتفكير . ولهذا يجب أن يكون واسع الأفق ، قادراً على دراسة مايتصدى لبحثه دراسة علمية . ومع أن لكل مسألة من مسائل الأدب المقارن ملابساتها التى تفرض توجيهات خاصة لايمكن الإحاطة بها جميعاً ، نرى من المفيد أن نشير إلى الشروط الأساسية التى يجب توافرها فيمن يتصدى لهذه البحوث :

١ — لابد أن يكون الباحث فى الأدب المقارن على علم بالحقائق التاريخية للعصر الذى يدرسه ، كى يستطيع إحلال الإنتاج الأدبى محله من الحوادث التاريخية التى تؤثر فى توجيهه ومجراه . فلدراسة نشأة الأدب الفارسى بعد الفتح العربى ، مثلا ، لابد أن تدرس ألوان النزاع السياسى والجنسى بين الشعبين ، والصلات بين الدويلات فى إيران وبين الخلفاء العباسيين فى أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر ؛ وهو الوقت الذى وصل إلينا فيه أقدم ما ألف من نثر فارسى . ويجب كذلك أن يدرس مامهد لهذا الإنتاج من حركة الشعوبية ، ومن تاريخ الحركة العقلية بين إيران وبين العرب . فمعرفة التاريخ ، إذن ، شرط جوهرى للدراسات المقارنة .

٢ — ومن الواضح أن الدارس للأدب المقارن يجب أن يعرف معرفة

دقيقة تاريخ الآداب المختلفة التى هو بسبيل البحث فيها ، إن لم يكن فى كل عصورها ، فعلى الأقل فى العصر الذى هو موضوع دراسته ، وما يتصل به مما يمكن أن يكون قد أثر فى إنتاجه الأدبى .

٣ — وتستلزم دراسة الأدب المقارن أن يستطيع الدارس قراءة النصوص المختلفة بلغاتها الأصلية . أما الاعتماد على الترجمة فما هو إلا طريقة ناقصة لا يسمح أن يلجأ إليها إذا أريد تقويم التأثير والتأثر الأدبيين على وجههما الصحيح. إذ أن لكل لغة خصائص وروحاً لا تفهم إلا فيها ولا تتذوق إلا بقراءة نصوصها.

على أن من ألزم ما تجب دراسته دراسة مقارنة الترجمة بين اللغات المختلفة التى قامت بينها صلات أدبية . وهذه الترجمة تختلف فيما بينها ، فتارة تكون دقيقة أمينة ، وتارة يتصرف فيها . ولكى يستطاع الحكم على تأثير كاتب فى لغة أخرى وتحديد هذا التأثير، يجب أن نقارن تلك الترجمة بأصولها فى لغتها التى ألفت بها ،على نحو ما تتطلبه الدراسة العلمية الدقيقة .

ويساعد المدرس الطلاب فى ترجمة الأصل ، وفى القيام بتلك المقارنة ، على أن تكون ترجمته وسيلة تسهل للطالب الرجوع للأصل وقراءته وفهمه . ولهذا يحتم على طلبة الأدب المقارن فى فرنسا أن يكونوا ملمين بلغتين أجنبيتين غير اللغة الفرنسية ، ليكونوا فى مستوى يسمح لهم بالقيام بمقارنة علمية .

٤ — يجب أن يكون الطالب ذا إلمام بالمراجع العامة ، عالماً بطريقة البحث فى المسائل، وبمظان، وأضعها من الكتب التى يدرسها. فعلى من يريد أن يدرس الصلات الأدبية العربية الفارسية أن يبحث فيما يخص اللغة العربية ونصوصها فى كتب الأدباء والمؤرخين الذين كتبوا بالعربية وهم من أصل فارسى ، كالطبرى ، وحمزة الأصفهانى ، وابن المقفع وابن قتيبة . . . وما أكثرهم . وفيما يخص الفارسية يجب أن يرجع إلى النصوص الأدبية التى ترجمت عن العربية ، ثم إلى النصوص التى

حوكى فيها أصل عربى أو تأثرت به، وذلك كترجمة كليلة ودمنة الفارسية. ولا غنى فى مثل هذه البحوث عن الاسترشاد بآراء المطلعين والمتخصصين والاستعانة بهم، وذلك لجدة هذه البحوث وتشعبها.

وقد خطا الباحثون الأوربيون والأمريكيون خطوات فسيحة فى تزويد مكاتبهم بمراجع تسهل البحث لدى طلاب الأدب المقارن. نذكر من هذه المراجع على سبيل المثال: كتاب الأستاذ « پول فان تيجم » الذى يقدم فهرساً مفصلا لكل ما ألف فى أوربا منذ اختراع الطباعة حتى نهاية القرن التاسع عشر (١٤٥٥—١٩٠٠)؛ والكتب مرتبة فيه ترتيباً زمنياً سنة فسنة. وهذ يساعد الباحثين مساعدة كبيرة، ويوحى إليهم بمجرد الإطلاع عليه بآراء نافعة [١]

وتخصص مجلة الأدب المقارن الفرنسية فى كل عدد من أعدادها قسما لما استجد من مراجع للأدب المقارن فى أوربا وأمريكا.

وأحدث هذه المراجع وأهمها الكتاب الذى نشره فى سنة ١٩٥٠ الباحثان « بالدنسبرجيه » الفرنسى Baldensperger و « فريدريك » الأمريكى W. P. Friederich — وعنوان الكتاب: مراجع للأدب المقارن Bibliography of Comparative Literature — وقد طبع فى أمريكا، وبه ثلاثة وثلاثون ألف مرجع منظمة تنظيما يسهل الانتفاع بها فى مختلف [٢] الموضوعات. فمتى نرى فى المكتبة العربية مثل هذه البحوث التى لاغنى للأدب المقارن عنها فيما يخص الأدب العربى؟ [٣]

---

(١) اسم هذا الكتاب الفهرس التاريخى للآداب الحديثة.

Le Répertoire Chronologique des Littératures Modernes.

(٢) من هذه المراجع الهامة للأدب المقارن ما تنشره جمعية: The Modern Language فى الولايات المتحدة، ثم Modern Humanities Reseacch Association فى انجلترا.

(٣) للمزيد من معرفة ما يجب على باحث الأدب المقارن راجع:

P.V. Tieghem. La Litt. Comp., pp. 53-56.

M.F. Guyard - La Litt. Comp., pp. 21-41.

الفصل الرابع

ميدان البحث فى الأدب المقارن

يجمل بنا — قبل الإفاضة فى كل فرع من فروع الأدب المقارن — أن نجمل القول فى هذه الفروع على حسب الاعتبارات التى يرمى إليها . فقد سبق أن وضحنا أن موضوع الأدب المقارن — عامة — هو تبادل الاستعارات الأدبية بين آداب اللغات ، فى أوسع ما تدل عليه كلمة الاستعارات من أجناس أدبية وصور فنية وموضوعات وأساطير ونماذج لأشخاص بشرية . . .

وقد يُنظرُ فى كل ذلك إلى وسائل عبور هذه الاستعارات من أدب لغة إلى أدب لغة أخرى ومن بلد إلى بلد ، وقد ينظر إلى المسائل المتبادلة نفسها ، وكيف تغيرت، فزيد فيها أو نقص منها حين انتقلت من اللغة التى أثرت إلى اللغة التى تأثرت . ففى الحالة الأولى تدرس عوامل الانتقال وملابساته . وفى الحالة الثانية تدرس المسائل نفسها من الموضوعات والأجناس الأدبية . ومن المصادر والتيارات الفكرية . . . ومن كل ذلك يتبين تنوع فروع الأدب المقارن التى سنجمل القول فيها إجمالا ، تمهيداً للتفصيل فيما بعد.

أولا : عوامل انتقال الأدب من لغة إلى لغة :

ولذلك الانتقال عاملان .

(١) الكتب (٢) المؤلفون

١ — الكتب : للكتب تأثير كبير فى إثبات الصلات الأدبية بين مختلف اللغات؛ فهى التى تلقى ضوءاً قوياً أو ضعيفاً على علاقات بلد ما، بمؤلف أو بمجتمع

أو بإنتاج أدبى فى بلد آخر . والأدب المقارن يهتم أولا بإثبات الصلة بين الوسط المؤثر والوسط المتأثر . ويستعان فى ذلك بما أدلى به المؤلف من تصريحات من نوع ثقافته وتأثره بكاتب أو ثقافة بلد ما . وقد يكون المؤلف نفسه قد كتب بعض مؤلفاته بلغة أجنبية ؛ فتكون لتلك المؤلفات دلالتها التى لا تنكر على تأثره بأدب اللغة التى كتب بها . وذلك مثل أكثر كتاب الفرس وشعرائهم، وكانوا من ذوى اللسانين العربى والفارسى . ومثل الكاتب الشاعر الإنجليزى « أوسكار وايلد» Oscar Wilde الذى ألف بالفرنسية قصة سالومية Salomé ، وكفولتير فى رسائله الإنجليزية . ومما يدخل فى هذا الباب دراسة الترجمة من لغة، إلى لغة ولمراجعة فى الأمم التى ترجمت إليها، ولكى يستطاع الحكم على الترجمة يجب أن يرجع إلى الأصل ، ويقارن بينه وبين مختلف ترجماته إلى اللغة المنقول إليها ، ثم يشار إلى أنواع التصرف فى تلك الترجمات ودلالتها .

ومما لا غنى عن دراسته فى هذا الباب كتب النقد والصحف التى تتحدث عن الكتاب والشعراء الأجانب . فمثلا إذا تتبعنا المجلات العربية والصحف القديمة نجدها تقدم كثيراً من الكتاب الأجانب لقرائها ، وقد ترجمت آراء « زولا » قديما فى بعض الصحف المصرية . وكانت صحيفة البلاغ تقدم كثيرا من كتاب الروس العالميين مثل « ما كسيم جوركى ». ومازالت المجلات المعاصرة مثل « المجلة » و « الآداب» و « الكاتب» تتبع نفس المنهج ، ولا بد من دراستها للوقوف على الحركة الفكرية العامة للعصر .

ومن هذا النوع من الدراسات أدب الرحلات وما له من تأثير فى تعريف الشعوب بعضها ببعض وصلة ذلك بآدابهم .

ومما يعين الباحث فى هذه السبيل تحديده لمدى رواج الكتب فى البلد الذى

يدرس تأثيرها فيه . ويستعان فى ذلك بفهارس الكتب فى دور الكتب ، وبإحصاءات الطبع فى دور الطبع .

٢ ــ المؤلفون : إنا نعتد بالكتب وحدها غالباً لكى تحدد العلاقات الأدبية بين الأمم المختلفة ، ضاربين فى ذلك صفحاً عن المؤلفين والمترجمين ، لأن الكتب هى وسيلة تعرف العلاقات . ولكنا إذا كنا بصدد كتب مؤلف مشهور ، فإننا لا نستطيع أن نهمل دراسته هو فى صلاته بالبلاد الأخرى ، وكيف عرفها وعرّفها لبلاده فى أدبه . فمثلا إذا أخذنا « شاتوبريان » وتأثره بانجلترا ، فلا بد من دراسة حياته فيها ، والنوادى التى كان يخالطها ، وصدى الثقافة الإنجليزية فى مؤلفاته ، وكذا « فولتير » فى حياته فى انجلترا ، وكيف كان تفسيره لخلق أهلها ولآدابهم ، ومدى ما أفاد من ذلك لنفسه ، وأية قيمة أدبية نتجت عن ذلك لدى معاصريه من بنى قومه .

ويدخل فى هذا الباب دراسة ابن المقفع فيما نقل إلى العربية من روائع لغته . فلكى ينظر إلى إنتاجه — بوصفه صلة بين الأدب الإيرانى وبين الأدب العربى — يجب أن تُدرس حياته نفسه ، وأن يُتعرّف على ثقافته وميوله الفارسية ، وما يمكن أن يكون لكل ذلك من صدى فى مجهوده الأدبى فى الترجمة التى قام بها . فلكى نستطيع تقدير كاتب أو رحالة أو مترجم من الأعلام المشهورين . يجب أن نعرف من أدب لغته ومن حياته وأحوال بلاده ما يمكننا من صدق الحكم عليه .

ثانياً : دراسة الأجناس الأدبية :

فى الفرع السابق من فروع الأدب المقارن أشرنا إلى الدراسات الخاصة

بكتب الترجمة والرحلات والنقد التى من شأنها أن تعرف بلداً ببلد آخر أو بأدبه، وإلى دراسة ما قد يكون لمؤلفيها من شأن ، إذا كانوا ذوى مكانة أدبية تحتم دراستهم . وليس كل ذلك إلا وسيلة لدراسة الصلات الأدبية الدولية . فإذا تجاوزنا هذه الوسائل إلى موضوعات من صميم الأدب المقارن، فإننا يجب أن ندرس، فيما ندرس ، حظ الأجناس الأدبية فى مختلف الآداب وانتشارها فيها .

ويراد بالأجناس الأدبية القوالب الفنية الخاصة التى تفرض بطبيعتها على المؤلف اتباع طريقة معينة . فمثلا يتبع المؤلف طريقة خاصة حين يعالج فى شكل تمثيلى نفس الموضوع الذى قد يعالجه آخر فى قالب خطابى . وتستخدم هذه الأجناس فى تقسيم الإنتاج الأدبى إلى فروع ، وهذا التقسيم لاغنى لنا عنه فى دراساتنا المقارنة[1] .

فمثلا : كيف نشأت قصة الرعاة ومسرحية الرعاة فى الأدب الأوربى ؟ ولماذا راجت الأخيرة فى القرن السادس عشر فى فرنسا ؟ ولماذا انصرف المؤلفون عنها فى أوائل القرن السابع عشر ؟ — ولماذا انتشرت القصة التاريخية فى كل أوربا فى أوائل القرن التاسع عشر ؟ وما أسباب الانصراف عنها فى حوالى منتصف ذلك القرن ؟ — وكيف نشأت القصة والمسرحية فى الأدب العربى الحديث ؟ وما الأسباب التى تحكمت فى خلق هذين الجنسين وفى تطورهما ؟

---

(١) قد يعترى الأجناس المختلفة تغير فى قوالبها وفى قواعدها . فمثلا : كانت الملحمة فى بدء أمرها قصراً على الشعر ، ثم كانت بعد ذلك تعالج فى الشعر وفى النثر على سواء . وكانت المسرحية فى نشأتها شعراً ، فصارت قسمة بين الشعر والنثر ، ثم أصبحت فى كثرتها الغالبة نثراً. والمسرحية الرومانتيكية خليط من المأساة والملهاة ومن الملحمة ومن الشعر الوجدانى ، ويهمنا فى الأدب المقارن دراسة هذه التغيرات إذا جاءت نتيجة لتأثير أدب آخر انظر :

J. Suberville : Théories de l'Art et des Genres Littéraires, pp. 222-223

ويدخل فى هذا الباب أيضاً دراسة الأجناس الأدبية القديمة ، كدراسة الخرافة على لسان الحيوان ، وكيف أدخل ابن المقفع هذا الجنس الأدبى فى الأدب العربى مثلا ، وإلى أى مدى تأثر به الأدب العربى ؛ ثم كيف أثر الأدب العربى بدوره ، من هذه الناحية ، فى الأدب الفارسى الحديث .

والدراسة فى هذا الباب دراسة تاريخية ، تستمد أصولها من تتبع كل نوع من هذه الأنواع وتطوره فى لغتين أو أكثر ، والعوامل التى أثرت فيه فى كل الآداب التى يراد درسها . وهذه الدراسات — على الرغم من أنها تاريخية فى جوهرها — ذات قيمة فى الدراسات المعاصرة ، وبخاصة فى أدبنا الحديث الذى يستمد أكثر أجناسه من الآداب الأوربية ، ويبتعد بذلك ، كثيراً أو قليلا ، عن مصادره من الأدب العربى القديم .

وقد يرمى الباحث إلى درس جنس أدبى فى أديبين فقط ، كدراسة القصة التاريخية فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى[1] ، وكدراسة القصة الرومانتيكية الفرنسية وتأثيرها فى القصة العربية . وقد يرمى إلى دراسة جنس أدبى فى أكثر من أديبين . كدراسة القصة الرومانتيكية فى الآداب الأوربية[2] ، ثم تأثيرها فى القصة العربية . وفى كل هذه الحالات على الباحث فى الأدب المقارن أن يراعى ما يأتى :

١ — أن يحدد الجنس الأدبى الذى يدرسه ، ويسهل تحديد الجنس إذا كان ذا قواعد فنية واضحة (القصة التاريخية ، المسرحية الكلاسيكية والمسرحية الرومانتيكية ؛ القصة الريفية) . ويصعب تحديده كلما قلت قواعده الفنية ، وكان

---

(١) كما فعل «ميجرون» فى كتابه : «القصة التاريخية فى فرنسا» .
L. Maigron : Le Roman Historique en France.

(٢) مثل كتاب «پول فان تيجم» فى ذلك ، راجع :
P.V.Tieghem : Le Romantisme dans la Littérature Européenne.
ولنا إلى هذه الموضوعات عودة فى بحوث أخرى .

ذا صبغة تتصل بالأسلوب أو بلون من ألوان العاطفة ، مثل ألوان التشاؤم فى شعر القبور الذى مهد للحركة الرومانتيكية . ومثل الوقوف على الأطلال فى الأدبين العربى والفارسى (١) .

٢ — أن يقيم الباحث الأدلة على تأثر الكاتب أو الكتاب بالجنس الأدبى الذى هو موضوع الدراسة. وقد يسهل عليه التدليل فيما إذا صرح الكاتب نفسه بذلك ، كما فعل الشاعر «هوجو» Hugo فى تصريحه بمحاكاة «شكسبير». وقد يصعب التدليل كما فى حالة محاكاة الشاعر « ألفريد دى ڤينى » A. de Vignyc للكاتب الإنجليزى «ولتر سكوت» W. Scott وكما فى محاكاة شوقى لشكسبير و « دريدن » وغيرهما فى مسرحيته : مصرع كليوباترا .

٣ — أن يحدد مدى تأثر الكاتب بالجنس الأدبى المراد درسه، وعوامل هذا التأثر ؛ فيبين ما إذا كان الكاتب خاضعاً لمذهب أدبى بعينه ، أو ما إذا كان حراً فى اختياره ؛ وما مدى تصرفه فى قواعد المدرسة التى يتبعها ، وما الأسباب التى جعلته يبعد كثيراً أو قليلا عن النموذج الذى أراد اتباعه . ولأجل النفوذ إلى هذه الأسباب يجب أن تدرس حياة الشاعر ، والمجتمع الذى نشأ فيه وثقافته الخاصة به .

فهذه الدراسات ، إذن ، تتطلب تحليلا دقيقاً للمؤلفات التى يراد درسها ، وإلماما بالحالة الاجتماعية والأدبية فى عصرها ، ثم بالحالة النفسية للكاتب الذى

---

(١) انظر :

P.V. Tieghem : Le Préromantisme, Vol. II.

ولنا إلى هذه الموضوعات عودة فيما بعد .

هو موضوع الدراسة ، ثم وقوفاً دقيقاً على ثقافة الكاتب وسعة اطلاعه ؛ لتكشف تلك الدراسة بعد ذلك عن الأصالة الفنية والواقعية فى إنتاجه .

ثالثاً : دراسة الموضوعات الأدبية :

يهتم كثير من الباحثين بهذا النوع من الدراسة وبخاصة الألمان . ويسمونه تاريخ الموضوعات Stoffgeschichte ؛ وذلك كأن يدرس « فاوست » Faust فى الأدب الألمانى والفرنسى ؛ أو « دون جوان Don Jouan فى الأدبين الأسبانى والفرنسى ؛ أو « كيلوباترا » فى الأدب الإنجليزى والفرنسى والعربى .

واهتمام الإيطاليين والفرنسيين بدراسة الموضوعات أقل من اهتمام الألمان بها ، وذلك لضعف الرابطة بين الشخصيات فى هذا النوع من البحث ، ولأن المجهود فيه يتطلب سعة فى العلم لا تتصل كثيراً بالأدب البحت . ومع ذلك لا تخفى أهمية تلك البحوث فى معرفة خصائص الشعوب ونفسيتها ، وفى دراسة الكاتب الذى يتخذ من هذه الموضوعات منفذاً للتصريح بآرائه وفلسفته . وقيمة هذه الدراسات تتوقف على اختيار الموضوع اختياراً له قيمته الأدبية ، وعلى براعة الباحث فى التحليل والمقارنة والاستنباط .

رابعاً : تأثير كاتب ما فى أدب أمة أخرى :

هذا النوع من الأدب المقارن هو أكثر فروعه انتشاراً لدى الباحثين من الفرنسيين . وذلك لوضوح منهج البحث فيه ولوثوق من الوصول فيه إلى نتائج تتناسب وما يبذله الباحث من جهد . وهو يتطلب مع ذلك سعة اطلاع ودقة فى التحليل ، وصبراً فى البحث ، وذكاء فى فهم النصوص ، كما يتبين ذلك من معرفة الأسس الآتية التى يجب اتباعها فيه :

١ — يجب تحديد نقطة البدء فى التأثير من مؤلفات كاتب ما ، أو كتاب واحد من بينها، أو من شخصية ذلك الكاتب بوصفه وحدة لا تتجزأ مع مؤلفاته. ومثال ذلك على الترتيب : تأثير مسرحيات « شكسبير »، أو تأثير هملت منها، ثم تأثير « جوته » .

٢ — يجب تحديد الوسط المتأثر ، بلدا كان أم مجموعة مؤلفين أم مؤلفاً. مثال ذلك تأثير الكاتب الفرنسى « جى دى موباسان » فى القصة المصرية القصيرة، أو فى مؤلفى القصة القصيرة العربية فى القرن العشرين ، أو فى « تيمور » فقط .

٣ — ويجب التمييز بين حظ الكاتب فى ذيوعه وانتشار مؤلفاته وبين حظه فى محاكاته والتأثر به. فقد يكون الكاتب ذا حظ عظيم فى ذيوع مؤلفاته وترجمتها، ولكنه مع ذلك ذو حظ أقل من جهة محاكاته والتأثير به. ثم إن هناك أنواعاً كثيرة من التأثر : فهناك التأثير الشخصى كتأثير « روسو » ، والتأثير الفنى كتأثير مسرحيات « شكسبير » فى أصحاب المذهب الرومانتيكى من الفرنسيين ، وتأثير « لافونتين » فى القصة العربية على لسان الحيوان ؛ ثم التأثير الفكرى كتأثير « فولتير » فى الآداب الأوربية؛ ثم التأثير فى الموضوعات كتأثير الأدب الأسبانى فى الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر مثلا ، وتأثير الشعر الغنائى العربى فى المدح فى الأدب الفارسى . .

خامساً : دراسة مصادر الكاتب :

إذا أخذنا كاتباً ما لندرسه دراسة مقارنة ، وبحثنا عن مصادره التى استقى منها أدبه فى لغة أو لغات أخرى، فإننا بذلك نكون فى منطقة من مناطق الأدب المقارن . ومظاهر تأثر الكاتب فى هذه الناحية متعددة النواحى . فمن ذلك تأثره بمحافظ البلاد الأخرى وعاداتها ، وهو ما يتطلب دراسة للبلاد المؤثرة من تلك

الناحية . ومن ذلك محاذاته مع رجالها، وهذا ما يصعب الوقوف عليه أحياناً. ثم من ذلك قراءاته المختلفة فى الآداب الأخرى ، تلك القراءات التى يمكن للباحث تحديدها متى تيسرت أسباب ذلك التحديد. ويجب ألا يفوت الباحث التفريق بين التأثر وبين مجرد توارد الخواطر وتلاقى الأفكار . وكثيراً ما ينتهى البحث فى هذا الميدان إلى شرح المصادر، دون استطاعة استيفاء شرح آثارها فى مؤلفات الكاتب [1] .

سادساً : دراسة التيارات الفكرية :

نقصد بذلك دراسة التيارات الفكرية التى تسود عصراً ما أو حركة معينة من حركات الأدب ، كالتيارات الفكرية فى القرن الثامن عشر فى أوربا ، وكالحركة الهيلينية فى أدب القرن التاسع عشر ، وكالفلسفة العاطفية والصوفية فى الأدبين العربى والفارسى ، وكفلسفة الواقعية بين مختلف الآداب .

ومثل هذه الدراسات تتطلب اطلاعاً واسعاً. ولا بد من دراستها فى أكثر من أدبين، حتى يستطاع تمييز الأفكار العامة التى سادت عصراً بعينه أو بلاداً بذاتها . وهذا كثيراً ما يشتبه التأثر بتوارد الخواطر ، وبالأفكار الفردية التى تتشابه لأنها وليدة حوادث متشابهة. وكل ذلك مما قد يدق دقة تضل معها أفكار الباحثين. على أن مجرد التمييز بين ماهو وليد حوادث متشابهة وماهو وليد التأثير الأدبى أمر هام لدراسة الأدب بصفة عامة ، ولدراسة الأدب المقارن كذلك .

سابعاً : دراسة بلد ما كما يصوره أدب أمة أخرى [2] :

لكل شعب من الشعوب رأيه فى الشعوب الأخرى ، ولهذا الرأى صدى

---

(١) انظر : Guyard. La Litt. Comp., pp. 21-22.

(٢) وهو ما يسمى بالفرنسية :

L'Interprétation d'un Pays par un Autre.

فى أدبه الذى هو سجل شعور الأمة وصورة صادقة لما عليه علاقاتها بغيرها من الأمم؛ ولمعرفة هذا يتحتم علينا أن ندرس أدب الرحلات، والقصص والمسرحيات، وما بها من أشخاص وألوان مجلوبة. وهذا الفرع من فروع الأدب للمقارن كثير الرواج فى فرنسا، ويجب أن يكون موضع عناية خاصة فى مصر أيضاً. وهو يشمل:

(١) دراسة بلد ما كما يصوره أدب آخر.

(٢) دراسة بلد كما يصوره مؤلف ما من أمة أخرى.

(١) دراسة بلد ما كما يصوره أدب آخر: مثال ذلك صورة انجلترا فى الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر؛ وكذا صورة أسبانيا فى الأدب العربى منذ الفتح الإسلامي. ولمثل هذه الدراسات يجب أن يدرس تاريخ الأدباء الذين رحلوا إلى ذلك البلد المراد درس صورته، وأن يشرح إلى أى حد كانت الصور التى رسموها صادقة، وأن يدرس كذلك المؤلفون الذين كتبوا عن ذلك البلد دون أن يروه، وكيف يصور هؤلاء وأولئك مختلف الأماكن لذلك البلد.

مثل هذه الدراسات تساعد على فهم الشعوب بعضها لبعض، وعلى إدراك كل منها للآخر إدراكاً يقوم على أسس صحيحة، مما يؤدى إلى حسن التفاهم بين الشعوب، وتأثير صلتها بعضها ببعض.

(٢) دراسة بلد كما يصوره مؤلف ما من أمة أخرى: ومثال ذلك صورة أسبانيا فى شعر شوقى، وكذا صورة مصر فى مؤلفات «جيراردى نرفال» G. De Nerval وفى هذه الحالة تدرس حياة الكاتب، ومدى صلته بالبلد المقصود، ثم يبين كيف استقى معلوماته أو كيف رأى البلد رأى العين، وإلى أى حد كانت الصورة التى رسمها لذلك البلد صادقة أو كاملة.

هذا مجمل أوردناه لفروع الأدب للقارن ؛ واتبعنا فى هـذا الإجمال بعض الباحثين الغربيين[٢] ، تمهيداً للتفصيل بعد ؛ ثم لأننا محتاجون لهذا الإجمال فى بعض أقسام الدراسة الجامعية التى تدرس بالتفصيل مسائل مقارنة معينة ، ولا يتسع وقت الدراسة فيها لسوى الوقوف على هذا المنهج المجمل ، اعتماداً على التفصيل فيه أثناء التطبيق فى دراسة المسائل للقارنة التى تدرسها تلك الأقسام.

---

(١) انظر : Guyard : La Litt. Comparée, .Paris 1951